دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	مصطلح التعليق للجرجاني : مفهومة و اثره في الدراسات اللغوية الانسانية
المصدر:	الفكر العربي (معهد الإنماء العربي) - لبنان
المؤلف الرئيسي:	رموني، راجي
المجلد/العدد:	مج 2, ع 16
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1980
الشهر:	اغسطس
الصفحات:	224-241
رقم MD:	419610
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	عبدالقاهر الجرجاني ، عبدالقاهر بن عبد الرحمن بن محمد ، ت. 471 هـ، النحو العربي، نظريات النحو، اللغة العربية، اثار التعلق، الدراسات اللغوية، اللغويون
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/419610

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مصطلح التّعليق للجرجاني

مفهومه وأثره في الدّراسات اللغويّة الإنسانيّة

د. راجح رموني

مقدمة

ان المتتبع مصطلح « التعليق » أو « التعلّق » في النحو العربي ليلاحظ انه أول ما ورد ذكره كان في كتاب « دلائل الاعجاز » للعلامة المسلم الامام عبد القاهر الجرجاني الذي نبغ في علم البلاغة في القرن الخامس الهجري. وقد طرح الجرجاني بهذا الاصطلاح الجديد مفهوماً جديداً بالنسبة للدراسة اللغوية في عصره. اذ دعا الى دراسة العلاقات النحوية التي تربط بين العناصر اللغوية في النص ودلالاتها المعنوية بمعزل عن العوامل والعلل النحوية والاتجاهات الفلسفية الأخرى المستوحاة من العلوم والفلسفة اليونانية القديمة. والبحث في هذا الميدان له غايتان أساسيتان. الأولى، الكشف عن جانب هام من جوانب شخصية الجرجاني التي لم يعتن بها الباحثون عناية وافية ـ ألا وهي جهوده النحوية الى جانب جهوده في علم المعاني والبيان التي كتب عنها الشيء الكثير. والغاية الثانية هي تغطية الجانب اللغوي من الحضارة العربية الاسلامية، بالإضافة الى الجوانب الأدبية والثقافية والفنية والفلسفية والاجتماعية الأخرى التي تتناولها هذه الندوة العالمية(*). وبذلك نكون قد أوفينا تراثنا العربي الإسلامي العتيد حقه من الدراسة والتمحيص.

سنبدأ هذا البحث بجولة في عالم « التعليق » اللغوي الذي ابتدعه الجرجاني، نحاول فيها تقصّي الأسباب والأسس التي دعته الى المناداة بضرورة الربط بين علم النحو وعلم المعاني واعتبار دراستهما معاً المحور الأساسي للتحليل اللغوي. ولا بد لنا في هذه الجولة من الاستشهاد ببعض الأمثلة من كتاب « دلائل الاعجاز » كتطبيقات عملية لفكرة « التعليق ». ويتناول القسم الثاني من البحث استعراض أهم الدراسات والمناهج اللغوية أولاً عند العرب وثانياً في أوروبا وأميركا. وبهذا نكون قد فتحنا المجال في القسم الثالث من

(*) هي الندوة العالمية للحضارة العربية الاسلامية التي انعقدت في اشبيلية من ٢٠ الى ٢٣ آذار ـ مارس ١٩٨٠. وبحث الدكتور رموني هذا قدم في الندوة المذكورة.

بحثنا هذا لإظهار القوة اللغوية العظمى الكامنة في فكرة «التعليق» وبيان اثرها في تطور النحو العربي بشكل عام، ووضع حجر الأساس في بناء علم اللغة الحديث بشكل خاص.

جولة قصيرة في عالم «التعليق»

١ - نظرة الجرجاني الى النظم والنحو:

يبدأ الجرجاني حديثه عن «التعليق» في مقدمة الكتاب بتعريف موجز للنَظْم فيقول: «ليس النظم سوى تعليق الكَلِم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض»[١] ويمضي الجرجاني في حديثه ليرينا أهمية العلاقة التي تربط الألفاظ بمعانيها عند النظم فيقول: «وأما نظم الكلم فليس فيه الأمر كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء الى الشيء كيفما جاء واتفق»[٢].

ويعود الجرجاني ليذكّرنا بأن فصاحة الكلام لا تأتي عادة الا نتيجة لهذا الإرتباط بين العناصر اللغوية في سياق النص وما تحمله هذه العناصر أو الأجزاء من معان في نفس الناظم: «ليس للنظم من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم»[٣].

وزيادة في الإيضاح والشرح حتى لا يبقى في عقولنا أي غموض أو لبس حول أهمية اعتبار المعاني النحوية الكامنة في العناصر اللغوية التي يتألف منها النص عند قيامنا بدراسة وتحليل هذه العناصر، يطلّ علينا الجرجاني منبّهاً فيقول: «ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكَلِم افراداً ومجردة من معاني النحو. فلا يقوم في وهم ولا يصحّ في عقل أن يتفكّر مفكّر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا ان يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد منه حكماً سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً أو صفة أو ما شاكل ذلك»[٤].

و «التعلق» في نظر الجرجاني: «لا يعدو ثلاثة اقسام - تعلّق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما»[٥]. «فالإسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبراً عنه كـ «المنطلق» في قولك: زيد منطلق، أو حالا منه كـ «راكباً» في قولك: جاءني زيد راكباً، أو تمييزاً له كـ «رجلاً» في قولنا: خمسة عشر رجلاً، الى غير ذلك من الوجوه التي يتعلق فيها الاسم بالاسم، كأن يكون صفة تابعة له أو بدلاً منه أو أن يكون الأول مضافاً الى الثاني»[٦].

والوجه الثاني هو تعلق الاسم بالفعل كأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً به أو ظرفاً مفعولاً فيه أو مفعولاً لأجله كقولنا: « ضرب زيد عمرا يوم الجمعة تأديباً له. معنى هذه الجملة أخبرنا بوقوع ضرب صادر من زيد وواقع على عمرو وجعلنا يوم الجمعة زمانه الذي وقع فيه والتأديب السبب أو الغرض الذي فعل الضرب من أجله »[٧].

أما الوجه الثالث فهو تعلق الحرف بالاسم والفعل كقولنا: « مررت بزيد ». فمعنى العلاقة التي يقوم بها حرف الجر « بـ » هنا هي التعدية، اذ لولاه لما استطعنا إيصال الفعل الى الاسم وإعانته على العمل فيه. ومن أمثلة هذا النوع أيضاً تعلّق الحرف بمجموع الجملة، كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه. ففي قولنا « ما خرج زيد » لم يكن النفي الواقع بـ « ما » متناولاً الخروج على الاطلاق بل إن الخروج هنا واقع من زيد ومسند إليه »[٨].

ويحمل الجرجاني آراءه في « التعلق » في عبارة شاملة قصيرة: « فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه »[٩] كما يحلو له أن يضع ذلك في بيت من الشعر:

وقد علمنا بأن النظم ليس سوى ... حكم من النحو نمضي في توخّيه[١٠]

تطبيقات عملية

ونتوقف الآن قليلاً لنتناول بعض النماذج التي أوردها الجرجاني ليوضح لنا من خلالها الدور الذي لعبه مصطلح « التعليق » في تفسير العلاقات السياقية فيما بين عناصر النص، ومن ثمة تحديد المعاني الوظيفية (النحوية) لهذه العناصر على أوضح وجه وأكمله، دون التأثر بتاتاً بالعوامل والعلل النحوية والمسمّيات التقليدية المستوحاة من المنطق والفلسفة اليونانية القديمة. فكمثل على ذلك يأخذ الجرجاني الجملة الاسمية المؤلفة من مبتدأ وخبر فيقول: « إن المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولاً ولا كان خبراً لأنه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأ لأنه مسند إليه ومثبت له المعنى والخبر خبراً لأنه مسند ومثبت به المعنى (...) فإذا قلت: زيد أخوك، كنت قد أثبت بـ « أخوك » معنى لزيد، وإذا قدّمت وأخّرت فقلت: أخوك زيد، وجب أن تكون مثبتاً بزيد معنى لـ « أخوك » وإلا كانت تسميتك له الآن مبتدأ وإذ ذاك خبراً تعبيراً للاسم عليه من غير معنى ولأدّى الى أن لا يكون لقولهم « المبتدأ والخبر » فائدة غير أن يتقدم اسم اللفظ على اسم من غير ان ينفرد كل واحد منهما بحكم لا يكون لصاحبه »[١١]. وبهذا المفهوم الجديد طالب الجرجاني بإلغاء التحليل التقليدي المستوحى من علم المنطق وإحلال التحليل اللغوي المستند الى معايير لغوية علمية محضة محلّه. فالإسناد في هذه الحالة علاقة معنوية تربط بين طرفي الجملة الاسمية وهما المسند والمسند إليه.

وينتقل الجرجاني الى باب آخر من أبواب النحو ليبرهن لنا أن الفروق في المعنى بين الجمل الحالية التي تستخدم «واو الحال» وتلك التي لا تستخدمها مثلاً لا يمكن التوصل إليها بالاعتماد على التحليل التقليدي فحسب، بل يلزمنا في هذه الحالة اعتبار معنى العلاقة بين الحال وصاحبه في كل جملة. وفي هذا يقول: «اعلم ان كل جملة وقعت حالاً ثم امتنعت من الواو فذلك لأجل أنك عمدت الى الفعل الواقع في صدرها فضممته الى الفعل الأول في إثبات واحد. وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد الى ان تضمّها الى الفعل في الإثبات(...) فإذا قلت: جاءني زيد يسرع، كان بمنزلة قولك: جاءني زيد مسرعاً، في أنك تثبت مجيئاً فيه إسراع وتصل أحد المعنيين بالآخر وتجعل الكلام خبراً واحداً وتريد أن تقول: جاءني كذلك وجاءني بهذه الهيئة(...) إذا قلت: جاءني زيد وهو يسرع، كان ذلك على استئناف إثبات للسرعة ولم يكن ذلك في (جاءني زيد يسرع) وذلك أنك إذا أعدت ذكر زيد فجئت بضميره المنفصل المرفوع كان بمنزلة أن تعيد اسمه صريحاً فتقول (جاءني زيدٌ وزيد يسرع). ولما كان المعنى الى استئناف الإثبات احتيج الى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجيء بالواو. وتسميتنا لها (واو الحال) لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة الى جملة»[١٢].

وهذا مثال ثالث يستخدم فيه الجرجاني التفسير كمعنى من معاني العلاقة المستعمل في باب التمييز. فهذا هو يقول: «وجملة الأمر أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولةً بغيرها، ومُعلِّقاً معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة «اشتعل» من قوله: «واشتعل الرأس شيباً» انها في أعلى المرتبة من الفصاحة، لم توجب ذلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها «الرأس» معرّفاً بالألف واللام ومقروناً بها «الشيب» منكّراً منصوباً»[١٣].

من هذه الأمثلة يتبيّن لنا مدى أهمية تعلّق الألفاظ بمعانيها النحوية التي دعا الجرجاني الى دراستها، لا بهدف التوصل الى الوظائف النحوية لهذه الألفاظ فحسب، بل بهدف التعرف الى جودتها وفصاحتها من الناحية الأدبية. وبهذا تكون فكرة التعلق قد لعبت دوراً هاماً في الربط بين عناصر النص اللغوية والأدبية مما يساعدنا على تحديد خصائص هذه العناصر على صورة أوفى وأوضح.

فكرة «التعليق» ومدى أثرها في الدراسات اللغوية العربية

لكي نستطيع معرفة ما قدمته فكرة «التعليق» من خدمات للنحو العربي، فإنه لا بد لنا من استعراض مختلف الاتجاهات النحوية التي كانت سائدة في زمن الجرجاني وبعده. فمنذ بداية النحو العربي في منتصف القرن الهجري الأول قام ابو الأسود الدؤلي بوضع النقط لضبط أواخر الكَلِم في الآيات القرآنية

لصيانة القرآن من التحريف واللحن[١٤].

وبعد قرن كامل جاء مؤسس مدرسة البصرة النحوية الخليل بن أحمد الفراهيدي فطوّر نقط أبي الأسود الدؤلي الى الحركات الإعرابية « الفتحة والضمة والكسرة » وقال إنها ليست أكثر من زوائد يؤتى بها للتوصل الى النطق الصحيح بالحروف. وهكذا نرى أن الهدف الأساسي من الضوابط النحوية كان تعليمياً صرفاً، خاصة وقد دخل المجتمع العربي في هذه الفترة كثير من الأعاجم الذين اعتنقوا الاسلام.

وجاء بعد الفراهيدي تلميذه سيبويه والمازني والأخفش من البصريين والكسائي والفرّاء من الكوفيين في القرنين الثالث والرابع للهجرة، فلم يقفوا عند تعليلات الفراهيدي التعليمية البسيطة بل تجاوزوها الى العلل القياسية النحوية المعقدة بسبب تأثرهم بالفلسفة والمنطق اليونانيين، وقاموا بوضع قواعد اللغة العربية وتقريرها عن طريق تتبع الأسباب والعوامل التي أدّت الى اختلاف ظهور العلامات الإعرابية على أواخر الأسماء والأفعال. فأكثروا الكلام عن العامل وبنوا عليه نحوهم كله مما جعل النحو يبدو وكأنه صناعة متكلّفة في علم المنطق والفلسفة لا دراسة وصفية للظواهر اللغوية. فالفعل المضارع مثلاً ينصب بالفتحة إذا سبقته إحدى عوامل النصب مثل « أن وكي وحتى »، ويجزم بالسكون إذا سبقته « لم ولما »، ويرفع إذا لم تسبقه إحدى عوامل النصب والجزم. وكذلك الاسم فهو مرفوع بالضمة إذا كان فاعلاً أو مبتدأ أو خبراً، ومنصوب بالفتحة إذا كان مفعولاً به أو له أو فيه أو وقع بعد « ان واخواتها »، ومجرور بالكسرة إذاسبقته إحدى عوامل الجر المعروفة بحروف الجر أو وقع مضافاً إليه. وعند عجزهم عن تفسير العلاقات الإعرابية باستعمال العوامل اللفظية والمعنوية كانوا يلجأون الى التعليلات والتقديرات المنطقية والفلسفية. فيقولون إن الاسم أحياناً منصوب بالفتحة على الاختصاص او الاشتغال وهلم جراً. وكان من نتيجة ذلك كله ظهور النزعات العاطفية والفلسفية والتعصب المذهبي، ولذا نجد القرن الرابع الهجري حافلاً بالمؤلفات التي اتخذت العلل والعوامل المحور الأساسي لفهم وتحليل النصوص العربية ووضع قواعدها.

ومجمل القول ان تركيز النحاة الأوائل كان منصباً على التركيب الظاهري للنص وما يحتوي عليه من ألفاظ وحركات إعرابية. ولم يحاول أحد منهم ربط هذه الألفاظ والحركات الإعرابية بما يُناط بها من معانٍ نحوية كامنة فيها عن طريق دراسة العلاقة التي تربط الألفاظ بعضها ببعض.

وقامت طائفة من النحاة ابتداء من القرن الرابع الهجري من أمثال المبرد وابن جني والزجاجي وابن ولاد المصري، الى ابن مضاء الأندلسي في القرن السادس، الى ابراهيم مصطفى وعباس حسن ومهدي المخزومي ومحمد الكسار وعبد الستار الجواري في العصر الحديث، فأظهرت عدم ارتياحها لنظرية العلّة والعامل والتأويل والتقدير، وتناولتها بالنقد وبيّنت معايبها ونادت بعدم الاتكال عليها في التحليل اللغوي. فهذا ابن

جني يقول: « محصول الحديث، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه، لا لشيء غيره »[١٥]. وهذا ابن مضاء الذي جاء بعد ابن جني بقرنين يشنّ حملة شعواء على نظرية العوامل والعلل النحوية اذ يفتتح الفصل الأول من كتابه (الرد على النحاة) بقوله: « قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه. فمن ذلك ادّعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي »[١٦]. وبعد أن يتحدث عن العوامل يدعو أيضاً الى إلغاء العلل النحوية فيقول: « ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثواني والثوالث »[١٧].

وفي العصر الحديث ينادي معظم اللغويين العرب بإصلاح النحو عن طريق الاستغناء عن العوامل والعلل. فهذا الدكتور المخزومي يطالب « ان نخلص الدرس النحوي مما علق به من شوائب جرّها عليه منهج دخيل، هو منهج الفلسفة الذي حمل معه الى هذا الدرس فكرة العامل »[١٨]. وينتقد الدكتور ابراهيم السامرائي فكرة العامل والعلة النحوية بإسهاب. ومن أقواله في هذا الخصوص: « وقد أدّى هذا الأسلوب بالنحويين الى ابتداع فكرة العمل والعامل، حتى أصبح النحو موضوع الاعراب وصار التماساً لكل الوسائل التي تفسّر وجوه الإعراب »[١٩]. ولنستمع الى ما يقوله الدكتور عباس حسن أحد رواد النحو العربي في العصر الحديث: « لعل ما أوردناه من الأمثلة ما ينهض دليلاً على أن « العامل » قد تجاوز اختصاصه حين أخرجه النحاة من دائرته المحدودة الى التحكم في الألفاظ والتراكيب: ذلك التحكم الذي هو داعية الدهش بل السخط، وسبب من أسباب الإساءة الى اللغة، وتعسيرها على المتعلمين، والراغبين فيها، والناطقين بها »[٢٠].

ومن الجدير بالذكر هنا أن جميع هؤلاء وغيرهم ممن لم تعجبهم نظرية العوامل والعلل لم يستطيعوا ان يقدموا لنا بديلاً مقبولاً نعتمد عليه في تفسير وتحديد الحالات الإعرابية المختلفة. وبسبب هذا العجز الواضح قام بعضهم كالدكتور انيس فريحة يطالب في كتابه (نحو عربية ميسرة) بإلغاء هذه الحركات بحجة تيسير النحو العربي وسهولة فهم اللغة العربية واستعمالها، مما فتح المجال في السنوات الأخيرة الى الدعوة الى استبدال العربية الفصحى باللهجات العامية. وكلنا يعرف ما تنطوي عليه مثل هذه الدعوة من خطورات على الأمة العربية والمسلمين بشكل خاص.

ومضى الحال على هذا المنوال والنحاة العرب عاجزون عن إدراك مدى تأثر الألفاظ او العناصر اللغوية بالمعاني النحوية الكامنة ضمنها عن طريق ملاحظة العلاقات السياقية التي تربط الطرفين معاً، إلا ما ورد على ألسنتهم من إشارات قصيرة متناثرة هنا وهناك في كتب النحو، تدل على أن أصحابها كانوا قد تأثروا نوعاً ما بفكرة « التعلق » ولكنهم لم يستطيعوا الكشف عن قاعدة عامة يعتمدونها في تعليل وتنظيم الحالات الإعرابية كما فعل الجرجاني. وهذه بعض عينات من أقوالهم:

يقول عبد الحميد الزملكاني في كتابه (التبيان في علم البيان) « الألفاظ مشاكلة للمعاني »[٢١]. وجاء في الجزء الأول من كتاب السيوطي (همع الهوامع) « والأصل في الإعراب أن يكون للفرق بين المعاني »[٢٢]. ويكاد السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) يعيد ما قاله الجرجاني في النحو حين يقول: « ان علم النحو هو ان تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم »[٢٣].

وظلّت الأمور كذلك حتى الخمسينات من هذا القرن حينما ظهرت بعض المحاولات لتجديد النحو التي تقرب مفاهيمها من المفاهيم الصحيحة لدراسة اللغة التي نادى بها الجرجاني قديماً واللغويون المعاصرون حديثاً. وفيما يلي وصف موجز لأهم هذه المحاولات.

١) محاولة الأستاذ ابراهيم مصطفى صاحب كتاب (إحياء النحو) حيث يقول: « إن الحركات في أواخر الكلمات العربية دوالّ على معان ثانوية يقصدها المتكلم عند الكلام لا نتيجة عوامل كما فعل سيبويه والكسائي وسائر النحاة. وإن الضمة علم الاسناد ومحلها المسند إليه، والكسرة علم الإضافة ومحلها المضاف إليه، والفتحة في غير ذلك »[٢٤].

٢) محاولة الشيخ يوسف كركوش الموضوعة في كتابه (رأي في الإعراب) والتي تشبه الى حد كبير المحاولة السابقة حيث يقول صاحبها في تفسير الحركات الإعرابية « إن الضمة علم الإسناد بمعنى أن المسند إليه والمسند يرفعان لكونهما ركنين في الكلام، والمضارع ـ كسائر الأفعال ـ يقع دائماً مسنداً فمن حقه الرفع. فإذا أراد المتكلم به البتّ والقطع جزمه وإن لم يكن هناك جازم كما جاء في بعض الآيات »[٢٥].

٣) محاولة الأستاذ محمد الكسار المبنية على ربط الحركة بالمعنى. فهو يقول في كتابه (المفتاح لتعريب النحو): « إن الإعراب هو الوضوح والبيان والتعبير عن قصد المتكلم بمعان يصل إليها عن طريق النظم »[٢٦]. وفي مكان آخر من الكتاب يتكلم الكسار عن مدى الإرتباط الموجود بين الحركة الإعرابية والفعالية. « إن الحركات رموز صوتية استعان بها الذهن العربي للتعبير عن أطوار الفعالية المختلفة في الأفعال وعن درجة المشاركة في اداء هذه الفعالية في الأسماء المعربة... فالعماد للفعالية الشديدة التي تقابلها حالة الرفع في الأسماء، والوسيط للاسم المجرور، والفضلة لكل ما عدا ذلك. أما في الأفعال فالفعالية الشديدة تقابلها حالة الرفع، والفعالية الخفيفة تقابلها حالة النصب، وانعدام الفعالية تقابله حالة الجزم »[٢٧].

٤) محاولة الدكتور مهدي المخزومي في كتابه (في النحو العربي: نقد وتوجيه) الذي حاول خلالها تخليص الدرس النحوي من سيطرة المنهج الفلسفي عليه وإبطال فكرة العامل. فهو يرى أن « موضوع الدرس النحوي الكلمة مؤلفة من غيرها، أو الجملة تُدرَس من حيث نوعها ومن حيث ما يطرأ لأركانها من تقديم

وتأخير او ذكر وحذف او إضمار وإظهار، ومن حيث ما يطرأ عليها من استفهام او نفي او توكيد. كل هذا مما يرتبط ارتباطاً بموضوع الدرس النحوي »[٢٨].

٥) محاولة الدكتور تمام حسان في كتابه (اللغة العربية: معناها ومبناها) التي تعد في نظري خاتمة هذه المحاولات وأنضجها وأقربها شبهاً بمحاولة الجرجاني وأكثرها نفعاً في تجديد النحو وتيسير فهمه وتحليله وتقريبه الى الأذهان. ومع أن هذه المحاولة باعتراف صاحبها مستقاة من فكرة « التعليق » التي نادى بها الجرجاني قبل ألف عام تقريباً[٢٩]، فإنها تفوق ما جاء به الجرجاني من ناحية الدقة العلمية في الوصف واستخدام أسلوب التحليل اللغوي الحديث لتحديد المعنى النحوي بواسطة تمييزه عن المعنى العجمي والمعنى الاجتماعي وتقسيم المعنى النحوي الى ثلاثة أقسام: المعنى النحوي العام (معاني أساليب الجمل) والمعنى النحوي الخاص (معاني الأبواب المفردة) ومعنى العلاقات السياقية (القرائن المعنوية) وهو المعنى الذي يتم بواسطته التشابك بين المعنيين الأولين. ويقر الدكتور حسان كما اقر الجرجاني « ان التعليق هو الفكرة المركزية للنحو العربي وان فهم التعليق على وجهه كاف وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي والعوامل النحوية، لأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق ويفسر العلاقات بينها على صورة أفضل وأكثر نفعاً في التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية... فالتعليق إذاً هو الإطار الضروري للتحليل اللغوي او كما يسميه النحاة « الإعراب »[٣٠]. ويخصص الدكتور حسان في كتابه ٥٠ صفحة يتكلم فيها عن قرائن التعليق فيقسمها الى قرائن معنوية (الاسناد، التخصيص، النسبة، التبعية، والمخالفة) وقرائن لفظية (الإعراب، الرتبة، الصيغة، المطابقة، الربط، التضامن، الأداة والتنغيم) »[٣١]. ولهذا جاءت محاولة الدكتور حسان مقرة فكرة « التعليق » التي ابتدعها الجرجاني ومتممة لها وواضعة إياها في اطار قاعدة أساسية ليسير على نهجها الدارسون والباحثون.

فكرة « التعليق » ومكانتها بين الدراسات اللغوية في الغرب

ذكرنا أن النحاة العرب الأوائل كانوا قد تأثروا بالمفاهيم اللغوية اليونانية، وبخاصة عندما قاموا بوضع قواعد اللغة العربية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، مما أدّى الى استخدام معايير منطقية فلسفية، كفكرة العامل والعلة والتأويل والتقدير الى ما شاكل ذلك من مسميات لا صلة لها باللغة. وبإمكاننا أن نقول الشيء نفسه عن الدراسات اللغوية الغربية. فقد ظلت هذه الدراسات منذ بدأ الإهتمام بها في أوروبا خلال القرن الثامن عشر تحمل الطابع التقليدي اليوناني حتى ظهور العالم اللغوي السويسري « فرديناند دو سوسور »(Ferdinand De Saussure) في مطلع القرن العشرين. فقد قام « سوسور » يطالب بتجريد الدراسات اللغوية مما شابها من أفكار فلسفية ومنطقية والتركيز على دراسة اللغة كعلم مستقل قائم بذاته[٣٢].

وبالمقارنة نرى أنه في الوقت الذي بقيت فيه الدراسات اللغوية الغربية تحمل الطابع التقليدي اليوناني حتى مطلع القرن العشرين نجد أن الدراسات اللغوية العربية قد نضجت في القرن الحادي عشر، وبدأ البحث اللغوي يتخذ طابعاً جديداً بعد ذلك، إذ قام كثير من النحاة يطالبون بإلغاء نظرية العامل والعلة النحوية وتخليص النحو العربي من الشوائب الفلسفية والمنطقية اليونانية، كما أسلفنا. وبينما نجد ايضاً ان بعض المستشرقين الأوروبيين كـ « وليم جونز » (William Jones) قام في نهاية القرن الثامن عشر بإكتشاف ما قدمه العالم اللغوي الهندي « بانيني » (Panini) من مناهج وأساليب لدراسة الأصوات[٣٣] فإن أعمال الفراهيدي وسيبويه وابن جني في دراسة الأصوات العربية لم تلق رعاية واهتماماً من الغرب حتى الخمسينات من هذا القرن[٣٤]، مع أن ما قام به هؤلاء النحاة كان بمنزلة أرقى مما جاء به « بانيني ». ويجدر هنا بالذكر أن الدراسة التي قام بها « جونز » على النصوص السنسكريتية التي اكتشفها للعالم الهندي « بانيني » ومقارنته إياها بالنصوص اللاتينية واليونانية والفارسية والجرمانية وخروجه بوجود تشابه في تراكيب وقواعد ومفردات هذه اللغات ـ كانت قد وضعت الأساس للدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة (Historical and Comparative Linguistics) التي استأثرت باهتمام اللغويين الأوروبيين طوال القرن التاسع عشر وحتى ظهور « سوسور »الذي قام في أواخر أيامه يدعو الى استقلالية علم اللغة ووضع اهتمام خاص على دراسة التراكيب والأصوات وخصائص المفردات، كما سبق ذكره. ولو أُتيح للغوي عربي او غربي أن ينتبه الى مفهوم « التعليق » الذي اكتشفه الجرجاني في القرن الحادي عشر الميلادي لكان العالم قد نادى باستقلال علم اللغة واتجه الإتجاه العلمي في الدراسات اللغوية بمفهومها الحديث قبل ألف عام تقريباً.

والمتمعن فيما تركه « سوسور » من مفاهيم وآراء لغوية في الكتاب الذي نشره تلاميذه بعد موته عام ١٩١٦، والذي قام « ويد باسكن » (Wade Baskin) بترجمته الى الانجليزية عام ١٩٥٩[٣٥]، ليجد كثيراً من أوجه الشبه بين « سوسور » والجرجاني مع أن الفارق الزمني بين العالمين زهاء تسعمئة عام تقريباً. فلقد قام كلا العالمين يطالبان بتخليص الدراسة اللغوية مما علق بها من تأثيرات فلسفية ومنطقية يونانية والدعوة الى التركيز على دراسة التركيب اللغوي والعلاقة التي تربط عناصره المختلفة من مفردات وأصوات بعضها ببعض، لا كوحدات منفصلة بل ككل مترابط. فهذا هو الجرجاني ينتقد طائفة النحاة الذين جاءوا قبله فيقول: « وأما النحو فظنته ضرباً من التكلّف، وباباً من التعسّف، وشيئاً لا يستند الى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وان ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب، وما يتصل بذلك مما تجده في المبادىء فهو فضل لا يجدي نفعاً، ولا تحصل منه على فائدة »[٣٦]. وهذا « سوسور » يقول:

«To base the classification on anything except concrete entities today, for example, that

the parts of speech are the constituents of language simply because they correspond to categories of logicis to forget that there are linguistic facts apart from the phonic substance cut into significant elements»[٣٧].

ومن ناحية أخرى نرى شبهاً كبيراً بين آراء الجرجاني و« سوسور » في النحو والتحليل اللغوي. فلنستمع الى الجرجاني يقول: «ليس النظم سوى تعليق الكَلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض »[٣٨]. ولنستمع الآن الى « سوسير »:

«Language is a system whose parts can and must all be considered in their synchronic solidarity»[٣٩].

وهذا هو الجرجاني يشبّه حال الناظم وهو يقوم بربط عناصر النص بعضها في بعض كحال الباني وهو يقوم بصف عناصر البناء الواحد منها تلو الآخر في مواضعها التي تفترضها، فيقول: « واعلم أن مما هو أصل في أن يدقّق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلم ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الجملة الى ان نضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك منها حال الباني وهو يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك. نعم، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها بعد الأولين »[٤٠].

وبالمثل يشبّه « سوسور » ارتباط العناصر اللغوية في التركيب الواحد بارتباط القطع التي تشكّل بمجموعها عناصر لعبة الشطرنج فيقول:

«A state if the set of chessmen corresponds closely to a state of language. The respective value of the pieces depends on their position on the chessboard just as each linguistic term derives it value from its opposition to all the other terms»[٤١].

هذا وقد أشار كل من الجرجاني و« سوسور » بالتحديد الى أهمية اعتبار الألفاظ ومعانيها معاً في التحليل اللغوي، إذ لا قيمة ولا معنى لأحدهما بدون الآخر مرتبطاً به. يقول الجرجاني: « ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل (...) وبعد أن كنا لا نشك في أن لا حال للفظة مع صاحبتها تعتبر إذا أنت عزلت دلالتها جانباً »[٤٢] ومن أقوال « سوسور » بهذا الشأن:

«A material unit exists through its meaning and function. This principle is especially

important in understanding smaller units, for one is tempted to think that they exist by virtue of their sheer material quality... By complementing each other, the two principles bear out my statements relative to the understanding of units»[٤٣].

ومن خلال هذه المقارنة، التي لا يسمح الوقت بالتوسع فيها أكثر من ذلك، نستنتج أن الجرجاني سبق « سوسور » بزمن طويل في الدعوة الى استقلالية علم اللغة ودراسة العناصر التي يتألف منها النص والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض دراسة علمية منهجية مجردة من الطابع الفلسفي التقليدي. ولما كان « سوسور » يعتبر في الغرب أول من أرسى قواعد « المدرسة البنيانية » (Structuralist School) فباستطاعتنا إذن أن نقول على ضوء النتائج التي حصلنا عليها من خلال المقارنة، إن الجرجاني كان قد سبق « سوسور » بتسعمئة عام تقريباً في وضع حجر الأساس لهذه المدرسة.

حبذا لو كان عندي الوقت الكافي لاستعراض النظريات والمدارس اللغوية التي جاءت بعد « سوسور » استعراضاً شاملاً لبيان أوجه الشبه او الاختلاف بينها وبين نظرية « التعليق ». ولهذا سأكتفي بالإشارة الى أهم هذه النظريات والمدارس وأبرز شخصياتها لمجرد استكمال البحث. وقبل البدء في حديثي عن هذه النظريات الجديدة لا بد من أن أنبّه الى حقيقة هامة في هذا المجال؛ فبعد ظهور نظرية الجرجاني في النظم وما اشتملت عليه من مصطلح « التعليق » الذي ينص على دراسة العناصر اللغوية من حيث علاقتها بعضها ببعض مجردة من التأثيرات الخارجية، لم يُعِر النحاةُ العرب الذين عاصروا الجرجاني أو جاءوا بعده هذه المفاهيم اللغوية الجديدة اهتماماً كبيراً حتى قيام الدكتور تمام حسّان بوضع كتابه (اللغة العربية: معناها ومبناها) سنة ١٩٧٣. وقد بيّنا عند الكلام عن آراء الدكتور حسان النحوية أنه كان متأثراً لدرجة كبيرة بفكرة « التعليق » حيث إنه اعتبرها « الفكرة المركزية في النحو العربي او بمعنى آخر الإطار الضروري للتحليل اللغوي »[٤٤]، كما أشرنا سابقاً.

من ناحية أخرى نرى أن علم اللغة في أوروبا وأميركا قد خطا خطوات واسعة بعد قيام المدرسة البنيانية في مطلع القرن العشرين على يد « سوسور ». ففي العشرينات مثلاً برزت مدرسة براغ اللغوية (The Prague School of Linguistics) في تشيكوسلوفاكيا نتيجة لتأثير آراء « سوسور » اللغوية وانتشارها في أوروبا. ومن أبرز سمات هذه المدرسة الجديدة اعتبارها اللغة أداة للاتصال في المجتمع والأدب. ولهذا نجدها قد وجّهت اهتماماً خاصاً للجانب الوظيفي من دراسة اللغة وتذوقها الأدبي. ومن هنا تلتقي وجهات نظرها مع وجهة نظر الجرجاني الداعية الى مزج علم اللغة بعلم المعاني والتذوق الأدبي. يعدّد الدكتور « بول غارفن » (Paul Garvin) في وصفه الشامل لهذه المدرسة أهم نشاطاتها فيقول:

«The major areas of activity of the Prague School include the following: Phonology, the concept of functional sentence-perspective, the study of the esthetic function of language and its role in literature and the verbal arts; the study of the role of the standard language in moderm society»[٤٥].

ومن أعضائها المشهورين « تروبتزكوي » (N. Trubetzkoy) و « جاكوبسون » (Jacobson) و« فاشك » (Vachek).

وقد شهدت الثلاثينات نشاطاً لغوياً أميركياً كان من أبرز شخصياته « سابير » (E. Sapir) الذي ربط دراسة اللغة بجوانب اخرى كالأدب والموسيقى. و « بلومفيلد » (L. Bloomfield) صاحب النظرية الداعية الى توجيه اهتام خاص لدراسة العلاقة بين الأجزاء المختلفة للتركيب اللغوي مجردة من المعنى. وقد وضع « بلومفيلد » نظريته في كتابه المعروف (Language)[٤٦].

وما ان جاءت الخمسينات حتى لمع نجم « تشومسكي » (N. chomsky) صاحب « نظرية التحويلات » (Transformational Theory) التي بموجبها يستطيع الباحث التعرف الى مجموعة « القواعد الذهنية المولّدة » (Generative Transformations) التي على أساسها يصوغ الناظم كلامه. فطبقاً لـ « تشومسكي » يلزمنا للتوصل الى هذه القواعد المولدة دراستها على ثلاثة مستويات: المستوى النحوي (Grammatical Level) والمستوى الصوتي (Phonological Level) اللذان يؤلفان معاً الألفاظ والعناصر اللغوية للنص ويطلق عليها « تشومسكي »« البنيان السطحي » (Surface Structure) ، والمستوى الثالث هو المستوى الدلالي (Semantic Level) الذي يشتمل على معاني الألفاظ والعناصر التي يتألف منها المستوى الاول، ويطلق عليه اسم البنيان العميق. وبمفهوم تشومسكي تتم عملية التحويل من المستوى الاول الى المستوى الثاني فالثالث بواسطة تحويلات يسميها (Transformations). ويعتقد « تشومسكي » أن هذه النظرية يمكن تطبيقها في دراسة جميع اللغات الإنسانية[٤٧].

ومن أبرز المدارس اللغوية التي ظهرت في بريطانيا في الأربعينات من هذا القرن هي مدرسة « فيرث » (J. Firth) الذي دعا في نظريته اللغوية المعروفة باسمه الى الربط بين عناصر التركيب اللغوية والعناصر الاجتماعية المؤثرة فيها، مما كان له أثر كبير في نشوء ما يسمى اليوم بعلم الإجتماع اللغوي (Socio-linguistcs).

وفي الستينات والسبعينات تطورت الدراسات اللغوية في أميركا وأوروبا تطوراً ملحوظاً، وتشابكت النظريات والآراء النحوية بحيث أصبح من الصعب علينا التمييز بين هذه النظريات المتشعبة ومعرفة أهدافها بوضوح. فقد ظهرت طائفة جديدة من اللغويين تنتمي الى ما يعرف اليوم بـ « مدرسة المعاني المولّدة »

(Generative Semanitcs School) نذكر من اعضائها « كاتز (Katz) و« فودور » (Fodor)[٤٩] و« لاكوف » (Lakoff)[٥٠] و« بوستال » (Postal)[٥١]. ومن الصفات البارزة لهذه المدرسة الجديدة الاهتمام بالمعنى الى جانب النحو في التحليل اللغوي، مما مهّد الى قيام بعض اللغويين مؤخراً من أمثال « ماكولي » (Macawley) و « غريدي » (Grady) بتوجيه نفس الدعوة التي وجهها الجرجاني، ألا وهي ضرورة المزج بين علم النحو وعلم المعاني في التحليل اللغوي وإعطاء المعاني أهمية بارزة أكثر مما يعطى لها في مدرسة المعاني المولدة. وقد أولى « غريدي » المعاني أهمية بالغة حتى أنه اقترح اسماً جديداً للتحليل اللغوي اطلق عليه « علم المعاني » (Semantax) مما يزيد القرابة بينه وبين الجرجاني. ولنستمع الآن الى بعض اقواله في هذا الخصوص:

«It is inescapable that we use language to communicate, to express meanings that is; and unless we somehow come to realize and attempt to deal systematically with the semantic aspect of language, granting it equal or perhaps even primary status to syntax-grammar, I feel we shall remain in the position of considering the tusk, or the trunk, or the leg to be the whole elephant, rather than an important but integrated part of the whole». [٥٢]

وبسبب ظهور هذه المدارس والمسمّيات الجديدة قام « تشومسكي » بنقد مدرسة المعاني والدفاع عن نظريته التي تنطلق تحويلاتها من قاعدة أساسية، هي العناصر اللغوية، وكمثل على أقواله في الدفاع عن مدرسته ومهاجمة مدرسة المعاني المولدة، نأخذ هذه الفقرة:

«As emphasized earlier, there is no precise sense to the question: Which of these is selected «first» and what s the «direction» of the relations among these formal objects. Consequently, it is senseless to propose as an alternate to 32 (Chomsky's Standard Theory) a «semantically-based» conception of grammar in which S (Semantic representation) is «selected first» and then mapped onto the surface structure (Pn) and ultimately P (Phonetic)». [٥٣]

وفي السنوات الأخيرة وجد « تشومسكي » نفسه مضطراً الى إجراء بعض التعديلات على نظريته كي تماشي التطورات الأخيرة في علم اللغة[٥٤]. ومن الاتجاهات الحديثة في دراسة اللغة ما قام به « فلمور » (Fillmore) وأمثاله من محاولات جادة لاعتبار معنى العلاقات النحوية بين عناصر النص اللغوية التي تتحدد بواسطتها الحالات الإعرابية، وسيلةً من وسائل التحليل اللغوي التي يجب أن يشار اليها بسميات تدلّ عليها في عملية التحليل. وقد أدّى هذا التفكير الى ظهور ما هو معروف اليوم بـ « نحو الإعراب » (Case Grammar)[٥٥] و« نحو العلاقة » (Relational Grammar) الذي يتضمن مفاهيم تقرب من مفهوم معنى العلاقة

بين أبواب النحو المختلفة الذي تنطوي عليه فكرة «التعليق» كما أوضحنا سابقاً.

مجمل الحديث أن جميع هذه النظريات والاتجاهات النحوية الحديثة في الغرب تحاول وصف الخصائص التي ينفرد بها كل مستوى من مستويات اللغة الثلاثة (الصوتي والنحوي والدلالي) وبيان مدى كيفية ونوعية التشابك العضوي الذي يربط هذه المستويات بعضها ببعض. فقد رأينا أن بعضها يهتم بالتحليل اللغوي من اجل التعرف الى جودة الأسلوب وإدراك حسن موقعه في النفس. والبعض الآخر، على نقيض ذلك، يسلط ضوءاً على الألفاظ والعلاقات النحوية دون أي اعتبار لدلالاتها المعنوية. وهناك من يولي البنيان السطحي بشقيه (اللفظي والنحوي) أهمية أكثر مما يعطيه للبنيان الباطني او المستوى الدلالي. كما نجد اليوم من يقوم على العكس من ذلك فيعطي الدلالات المعنوية للنص الأولوية في التحليل اللغوي. والى جانب هؤلاء جميعاً ظهر في الآونة الأخيرة من يرغب في تضمين عملية التحليل اللغوي مسميات إضافية تشير الى معاني العلاقات السياقية التي تربط بين أبواب النحو المختلفة.

ولو ألقينا نظرة شاملة على جميع هذه النظريات والمدارس اللغوية الجديدة لوجدناها ـ ابتداء من مدرسة «سوسور» البنيانية الى مدرسة «تشومسكي» التحليلية حتى المدارس الحديثة كمدرسة «المعاني» ومدرسة «نحو العلاقة» وغيرها ـ تشكل جميعها نظاماً يشبه في مجموعه نظام الجرجاني الذي يستند الى أربعة أركان: النظم، الترتيب، البناء، التعليق[٥٦]. فلقد تكلم الجرجاني كما تكلم لغويو العصر الحديث عن الألفاظ ومعانيها والعلاقات النحوية التي تربط بينها. كما تكلم عن التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والاضمار والوصل والفصل، وأثّر ذلك كله في بلاغة النص وفصاحته وفهمه وتحليله تماماً كما فعلوا. وإن لم يتفق لغويو أوروبا وأميركا حتى الآن على أيهما أحق بالبدء به في التحليل اللغوي: الألفاظ أم المعاني؟! فقد أقرّ الجرجاني أولوية المعاني على الألفاظ بكل حزم وتأكيد في أكثر من عبارة، نذكر منها على سبيل المثال عبارة «الألفاظ هي التابعة والمعاني هي المتبوعة»[٥٧] وعبارة «إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها»[٥٨].

وإذا كان لا بد من ذكر شيء تتفوّق به النظريات اللغوية الحديثة على نظرية الجرجاني، فإنما هو أسلوب البحث اللغوي الحديث الذي يتميز باستخدام الدقة العلمية في الوصف والاشجار والفروع والمعادلات والرموز اللغوية في تصنيف العناصر اللغوية على نمط التصنيف المعتمد في المباحث العلمية كعلم الكيمياء وعلم النبات.

الخلاصة

أرتنا هذه الجولة القصيرة في عالم «التعليق» بشكل خاص وعالم الدراسات اللغوية الإنسانية بشكل عام أن الحضارة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها قد وضعت حجر الأساس لعلم اللغة الحديث. فلقد أثبتنا بشواهد لا تقبل الشك أن فكرة «التعليق» التي جاء بها الجرجاني أنارت البحث اللغوي بشكل عام باشعاعات ومفاهيم جديدة حملت في طيّاتها الدعوة الى دراسة اللغة وعناصرها كموضوع علمي بمعزل عن التأثيرات الفلسفية التقليدية. ولو قُدِّر لأحد من النحاة العرب القدامى رؤية هذه المفاهيم اللغوية الجديدة ومتابعتها وتطويرها والإضافة إليها بما يتماشى مع الدراسات اللغوية، لَكُنّا قد خلّصنا النحو العربي منذ زمن طويل من جميع ما علق به من شوائب فلسفية ومنطقية كفكرة العوامل والعلل النحوية والتقدير والتأويل وما شابه ذلك من مناهج دخيلة، ولَكُنّا أيضاً على ضوء هذه الأفكار والاتجاهات الجديدة التي تتسم بالأصالة والموضوعية قد اهتدينا الى الطريق السوي لتيسير دراسة النحو العربي وتجديد وصفه بدلاً من السير في الطريق المعوج والمطالبة بإلغاء الحركات الإعرابية وتجميد اللغة العربية الفصحى لعدم وضوح الرؤية أمامنا. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث مع الأسف الشديد، لا تجاهلاً للجرجاني ومؤلفه العظيم الذي كتب حولها الشيء الكثير، ولكن، كما أعتقد، لأن كتاب (دلائل الاعجاز) لم يُعتبر كتاباً مستقلاً بالدراسات النحوية، بل كتاباً في علم المعاني كما يدل عليه عنوان الكتاب «كتاب دلائل الإعجاز (في علم المعاني)» أو كما جاء في المقدمة للتعريف بالكتاب، إذ يقول الناشر محمد رشيد رضا: «أما الكتاب فيعرف مكانته من يعرف معنى البلاغة وسر تسمية هذا الفن بالمعاني»[٥٩].

ونحن إذ قد أزحنا الغبار عن الجانب اللغوي من هذا المؤلف الثمين لنظهر للنحويين والباحثين في كل مكان بعض المفاهيم والمناهج اللغوية التي طرحها الجرجاني لدراسة اللغة العربية دراسة موضوعية تستند الى تراكيبها وعلاقة عناصرها اللغوية بعضها ببعض، فإنا نكون قد نبّهنا الأذهان الى حقائق ثلاث كنا نجهلها، وهي: (١) تفوق وأصالة الدراسات اللغوية عند العرب قديماً ليعتزّ الجيل الحاضر من الباحثين والدارسين العرب بهذه المفاخر والمآثر اللغوية العريقة في القدم، فلا يتسرّب اليأس الى نفوسهم حين يجدون الكثرة منهم تدرس علم اللغة الحديث في الجامعات الأوروبية والأميركية لأنها أصبحت اليوم أسبق الأمم في مضمار الدراسات اللغوية. (٢) قيام الجرجاني قبل ألف عام تقريباً بوضع حجر الأساس لبناء المدرسة البنيانية (Structuralist School) التي يدّعي الغرب بتأسيسها لأول مرة في مطلع القرن العشرين. (٣) إظهار القوة اللغوية العظمى الكامنة في كتب التراث العربي الإسلامي التي تنتظر من ينقّب عنها من أجل الكشف عن مآثرها الفاخرة وإتاحة المجال للغوي هذا العصر لأخذ ما هو نافع منها من أجل إغناء وتطوير الدراسات اللغوية الحديثة.

وعلى ضوء هذه الحقائق اسمحوا لي أن اختتم بحثي هذا بالتوصية التالية:

« ضرورة إنشاء مركز أو معهد للدراسات العربية والاسلامية يناط به رسم خطة عمل منسّقة لدعم البحوث والدراسات المتعلقة بالتراث العربي الإسلامي بمختلف فروعه في الجامعات والمؤسسات العلمية العربية والأوروبية والأميركية، وتشجيع التعاون والتبادل المشترك بين الأساتذة والباحثين والدارسين المختصين في هذه الدراسات ليتمكنوا من القيام كمجموعات مشتركة بإعداد الكتب الدراسية على مختلف المستويات، وترجمة عيون الكتب العربية والإسلامية قديمها وحديثها، وجمع وتحقيق المهم من مخطوطات هذا التراث وإعادة وصف النحو العربي وتصنيفه بموجب الأساليب اللغوية الحديثة واستخدام العقل الألكتروني ».

فهناك اليوم الكثير من الدراسات والبحوث والكتب المتعلقة بالتراث العربي الإسلامي بجوانبه المتعددة، ولكنها جهود مهما كانت غنية فإنها لا تزال تحمل النظرة الإنفرادية. وإنني لواثق تماماً بأن فكرة العمل الجماعي التعاوني التي بدأت ملامحها السليمة تظهر لنا بوضوح أثناء انعقاد الحلقة الدراسية حول الدراسات العربية والإسلامية بجامعة مشيغان في الصيف الماضي وكذلك أثناء هذه الندوة العالمية، بدعم من جامعات وشعب الجماهيرية الليبية العربية ـ ستقضي على عوامل التفرقة والبعد والانفرادية والأنانية والتشكك، وإحلال عوامل المشاركة الجماعية والتضحية والتفاهم والشعور بالمسؤولية العلمية مكانها.

إن قيام مركز للدراسات العربية والإسلامية تحت إشراف أيدٍ عاملة أمينة لرسم سياسة سليمة لتنفيذ المقترحات والتوصيات المنبثقة من هذه الندوة وأمثالها من المؤتمرات والحلقات الدراسية التي عقدت في الماضي او ستعقد في المستقبل، سيكون في نظري نقطة تحول نحو بداية العمل الجاد في إعادة بناء تراثنا الخالد ونهضتنا العلمية الزاهرة لتعود في يوم من الأيام فنتولّى قيادة هذا العالم قيادة علمية سليمة كما فعلنا في الماضي.

« نبني كما كانت أوائلنا تبني، ونفعل فوق ما فعلوا »

حواشي ومراجع البحث

١ - الامام عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز** (الطبعة السادسة) مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٢.
٢ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٤٨.
٣ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٧١.
٤ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٢٦١.
٥ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٢.
٦ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٤٤ ـ ١٤٧.

٧ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٢٥٩.
٨ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٤.
٩ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٥.
١٠ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٧.
١١ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٣١ - ١٣٢.
١٢ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٤٥ - ١٤٦.
١٣ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٢٥٨.
١٤ - الدكتور مهدي المخزومي: **في النحو العربي: نقد وتوجيه** (الطبعة الأولى) المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤، ص ١٣.
- الدكتور ابراهيم السامرائي: **تنمية اللغة العربية في العصر الحديث**. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة الحلاوي، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٤.
- الأستاذ محمد الكسار: **المفتاح لتعريب النحو**. المكتب العربي للاعلان، دمشق، ١٩٧٦، ص ١٣٤.
١٥ - أبو الفتح عثمان بن جني: **الخصائص**. الجزء الأول (الطبعة الثانية) دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١، ص ١١٠.
١٦ - أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي: **الرد على النحاة** (الطبعة الأولى) مطبعة لجنة التأليف والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٨٥.
١٧ - ابن مضاء اللخمي، المرجع السابق، ص ١٥١
١٨ - المخزومي، المرجع السابق، ص ١٥.
١٩ - السامرائي، المرجع السابق، ص ١٥٢.
٢٠ - الدكتور عباس حسن: **اللغة والنحو بين القديم والحديث**. دار المعارف بمصر القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
٢١ - عبد الحميد الزملكاني: **التبيان في علم البيان**، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤، ص ٤.
٢٢ - الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي: **همع الهوامع** الجزء الأول، (الطبعة الأولى)، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٩، ص ٩٣.
٢٣ - سراج الملة والدين السكاكي: **مفتاح العلوم** (الطبعة الأولى)، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧، ص ٤١.
٢٤ - انظر الكسار، المرجع السابق، ص ١٢٢.
٢٥ - انظر الكسار، المرجع السابق، ص ١٢٢.
٢٦ - الكسار، المرجع السابق، ص ١٣٦.
٢٧ - الكسار، المرجع السابق، ص٢١٨ - ٢١٩.
٢٨ - المخزومي، المرجع السابق، ص ٢٨.
٢٩ - الدكتور تمام حسان: **اللغة العربية: معناها ومبناها**. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٨.
٣٠ - حسان، المصدر السابق، ص ١٨٩.
٣١ - حسان، المصدر السابق، ص ١٩١ - ٢٤٠.
٣٢ - **F. De Saussure, Course in General Linguistics** (English Translation by Wade Baskin) New York, Philosophical Library, 1959.
٣٣ - Sir William Jones, «Dissertation on the Orthography of Asiatic Words in Roman Letters» **Works,** Vol. 3, London, 1807, pp. 253 – 318.
٣٤ - M. H. El-Sarran, «A critical Study of Phonetic Observations of the Arab Grammarians». (Ph. D. Thesis, University of London), 1951.

٣٥ - Saussure, Ibid.

٣٦ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٢٢.

٣٧ - Saussure, Ibid., p. 110.

٣٨ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ١٢.

٣٩ - Saussure, Ibid., p. 87.

٤٠ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٧٤ - ٧٥.

٤١ - Saussure, Ibid., p. 88.

٤٢ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٤٨ - ٤٩.

٤٣ - Saussure, Ibid., p. 139.

٤٤ - حسان، المرجع السابق، ص ١٨٩.

٤٥ - Paul L. Garvin, «The Prague School of Linguistics» **in Linguistics** Today, Edited by Archibald Hill. New York: Basic Books, Inc., 1969, p. 231.

٤٦ - L. Bloomfield, **Language.** New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1933.

٤٧ - Noam Chomsky, **Syntactic Structures** (3rd printing), The Hague: Mouton, 1963.

Noam Chomsky, Current Issues in Linguistic Theory. The Hague: Mouton, 1964, pp. 50–59.

٤٨ - JC. Catford, «J. R. Firth and British Linguistics» **in Linguistics Today,** Edited by Archibald Hill, New York: Basic Books, Inc. 1969. pp. 218–228.

٤٩ - Jerold J. Katz, and Jerry A. Fodor, «The Structure of a Semantic Theory». **The Structure of Language: Readings in the Philosophy of Language.** Edited by Jerry A. Fodor and Jerrold J. Katz. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice–Hall. 1964 pp 479–518.

٥٠ - George Lakoff, «On Generative Semantics». **Semantics: An Interdisciplinary Reader in Philosophy, Linguisitics and Psychology.** Edited by Danny D. Steinberg and Leon A. Jakobovitz. Cambridge: The University Press. 1971. pp. 232–296.

٥١ - Jerold J. Katz and Paul M. Postal, **An Integrated Theory of Linguistic Descriptions.** Cambridge, Mass., 1964.

٥٢ - Michael Grady, **Syntax and Semantics of the English Verb Phrase.** The Hague: Mouton. 1970. p. 77.

٥٣ - Noam Chomsky. **Studies on Semantics in Generative Grammar.** The Hague: Mouton. 1972, p. 85.

٥٤ - Noam Chomsky, Ibid, pp. 62–117.

٥٥ - Charles J. Filmore «The Case for Case» **Universals in Linguistics Theory.** Edited by Emmon Bach and Robert T. Harms. New York: Holt, Rinehart and Winston. Inc., 1968, pp. 1–88.

٥٦ - حسان، المرجع السابق، ١٨٦.

٥٧ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

٥٨ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٥٠.

٥٩ - الجرجاني، المرجع السابق، ص ٤.